الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

"يَمْحَقُ اللّه الرِّبَا"

الآثار المدمرة للربا على التنميّة المجتمعيّة المستدامة

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA LONDON - UK

AMIEE
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

لقد كان في آيات القرآن التي تتنزّل على سيدنا محمد صلّى اللّٰه عليه وسلّم ما فيه تحذير من داء سيصيب البشرية في آخر الزمان، ولم تكن تلك الآيات مجرّد كلمات، بل قوانين كونية منقوشة في لوح الوجود نفسه، ومنها قوله تعالى:﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾(البقرة: 276)، وها قد مرت القرون، ونسي الناس هذا التحذير الرباني، فأقبلوا على الربا كالفراش المنجذب للنار، يحسبونه نوراً وهو يحرقهم، فقاموا ببناء حضارتهم على أساس هشّ من الفوائد والديون، وأسّسوا اقتصادهم على محرّمات انتهكوا فيها حدود اللّٰه التي حذّر منها في محكم كتابه الحكيم.

واليوم، ها نحن بعد أربعة عشر قرناً من نزول القرآن، نرى بأمّ أعيننا كيف تحقّقت النبوءة القرآنية بدقة رياضية مذهلة، فكلّ أزمة ماليّة، وكلّ انهيار اقتصادي، وكلّ دمار يحلّ بالأمم، يصرخ بصوت واحد بأنّ اللّٰه يمحق الربّا، مؤكّداً بأنّ اللّٰه سبحانه لم يحرّم الربا عبثاً، ولم ينزل آية المحق إلاّ وهو يعلم أنّ البشرية ستشهد يوماً ما هذا المشهد المأساوي، فهاهي أمامنا حضارة تشرب سمّ موتها بكؤوس من ذهب، وأمم تحفر قبورها بعملات ورقيّة ملطخة بدماء الشّعوب، ها هي قصّة حب المال التي تقود للهلاك، وحكاية حضارة أدمنت السّم الزّعاف وأقتات عليه غذاء ودواء لما تمرّ به من محن وعقبات.

فالربا هذا الوحش الخفيّ والطاغوت المدمّر، يتجاوز كونه مجرّد معاملة ماليّة محرّمة ليصبح عدوى اجتماعيّة تدمّر النّسيج الإنسانيّ من الداخل، فالربّا في صميمه عمليّة نقل الثروة من خلال الفوائد من الفقراء إلى الأغنياء حتّى وهم نائمون، ففي كلّ ثانية تمر، يحدث إغواء شيطانيّ صامت: بانتقال ملايين الأموال من جيوب الفقراء والطبقة الوسطى إلى خزائن المرابين حول العالم، وي ْكأنّ العالم بنهجه هذا يتّجه نحو جعل الأموال بين يديّ من يقرض بفوائد.

فها هي ذي الأرقام تقرأ الواقع وتعكسه، إذ يتوقّع صندوق النقد الدولي أنْ يتخطّى حجم الدين العام العالمي 318 تريليون دولار خلال العام 2024، وفق تقرير آفاق الاقتصاد العالمي الصادر في أكتوبر الماضي، وبالنظر إلى المستقبل، من المتوقّع أنْ ترتفع مستويات الديون بشكل أسرع ممّا كان متوقعاً في السابق مع فشل السياسات الحكومية في معالجة مخاطر الديون، لذلك فقد حذّر الصندوق من أنّ وضع الدين العام في أنحاء العالم قد يكون أكثر خطورة ممّا يُعتقد، فبحلول نهاية العقد الجاري، يُتوقّع أنْ يصل الدين العام العالمي إلى 100% من الناتج المحلي الإجمالي العالمي بحلول 2030.

ومن منظور آخر فإنّ الربّا لا يدمّر المال وحسب، بل هو قتل وموت بطيء للأرض نفسها، فالنظام الربوي يفرض على المزارعين - مثلاً - نمواً قسرياً لسداد الفوائد، ممّا يؤدّي إلى استنزاف التربة الزراعيّة، والإفراط في استخدام المبيدات، وتدمير التنوع البيولوجي.

وعلى النقيض من هذا الدمار الذي يُحدثه النظام الربوي، تُقدّم التجارب العملية نموذجاً مختلفاً تماماً، فعندما قررت ماليزيا تطبيق النظام المالي الإسلامي تدريجياً كانت النتاجات زيادة معدّل النّمو الذي قفز إلى 7% سنوياً (ضعف المتوسط العالمي)، وتحقيق الاستقرار المالي إذ احتلّت المركز الأول عالمياً في مؤشّر الاستقرار المالي الإسلاميّ، ووصول التنوّع الدّيني من عملاء البنوك الإسلاميّة في ماليزيا من غير المسلمين إلى 30%.

ولا تقتصر هذه النتائج الإيجابية على الحدود الماليزية فحسب، بل تمتدّ لتُعزّز الثقة العالميّة في البديل الإسلامي، فمن جانب آخر فقد نما سوق الصكوك الإسلامية بنسبة 300% خلال عامين، ووفقاً لدراسات البنك الدولي، يمكن أنْ تصل قيمتها إلى 1.5 تريليون دولار خلال العقد القادم.

وهذه النتائج الإيجابيّة فيما سبق تحمل بوادر حلم يمكن أنْ يتحقّق، فماذا لو تاب العالم من الربا، فقط فلنتخيّل هذا المشهد:

ماذا لو ذات يوم استيقظت الشعوب، على إعلان الحكومات والبنوك المركزية لتجميد الفوائد على الديون، وبدأت البنوك في تحويل قروضها الربوية إلى صيغ تشاركية، ماذا سيحدث آنذاك؟

لو حدث ذلك لكان الآتي نتاجاً ملموساً؛

لانحسرت الديون واختفى ما يقارب 30% من نسبة ديون الدول النامية في الحين واللحظة، لتحوّلت البنوك إلى شركات استثمار تشاركيّة وهذا يعني ولادة التمويل الأخلاقي، لانتقل ما نسبته 45% من ثروة المرابين إلى الاستثمار المنتج، وهذا يعمل على إعادة هندسة الثروات، لاختفى ما يقارب من 70% من تضخم الأسعار الناتج عن تكاليف الفائدة، وهذا يعني القضاء على التضخّم، لانفجر العطاء من خلال تقديم الزكاة للفقراء، ممّا يعني تحريك مليارات الدولارات سنوياً، لاختفت الأزمات المالية الدورية، ولتوقّف الاستنزاف الجائر للموارد الطبيعية، وهذا بدوره سيعزّز من دخل المواطنين ويحقّق معدّلات نموّ وتقدّم تنمويّ ملحوظ.

إن هذا التحول الاقتصادي الذي نتخيله ليس مجرد حلم طوباوي، بل له أساس روحي عميق في كتاب اللّٰه، إذ يقول اللّٰه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِن رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ (الآية:66)، فهذه ليست مجرّد آية، بل معادلة كونيّة تربط بين الإصلاح الروحي والازدهار المادي، وهذا إنْ دلّ على شيء فإنّه يدلّ على أنّ البركة الإلهية لا تقتصر على الجانب الروحي فحسب، بل تمتد لتشمل الابتكار العلمي والتقدم التكنولوجي عندما تسير البشرية على منهج العدالة الإلهية.

وهناك ما يؤكّد أنّ الحلّ لأزمات العالم يكمن في البعد عن الرّبا، فقد أكّد العالم الفرنسيّ موريس إلياس، الذي حاز عام 1988 على جائزة نوبل في الاقتصاد، أنّه لا يوجد حلّ لأزمة العالم الاقتصاديّة إلاّ أنْ تصل نسبة الفائدة إلى صفر، وهذا ما أكّده القرآن من قبل في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: 279).

ختاماً،

فلا أجمل ولا أبلغ ولا أروع من قول اللّٰه تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة:278)، فهنا نداء أخير لرؤية الصورة الكبرى، وقراءة الأرقام بتمعّن، فنحن أمام نسبة 86% من المسلمين حول العالم غير ممولين بنكياً بسبب رفضهم للربا، و78% من البطاقات الائتمانية الإسلامية تحتوي على فوائد خفيّة، و40% من منتجات البنوك الإسلامية تتعامل مع البنوك الربوية، وما هذه الأرقام إلاّ مؤشّر لحجم التناقض في واقعنا المعاصر، ولدينا اليوم أمام هكذا واقع خياران لا ثالث لهما: إمّا الاستمرار في طريق الدمار فتتحقّق نبوءة القرآن ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (الروم:41)، وإمّا العودة إلى النظام الربانيّ، حيث تتفتّح بركات السماء والأرض، إذ يقول اللّٰه تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾ (نوح: 10- 12).

فهذا النداء ليس موجّهاً للمؤمنين فقط، بل لكلّ إنسان يريد إنقاذ هذا الكوكب من الانهيار، فهل نكون من الذين سمعوا النداء فأجابوا: "لبيك" بقلوب عامرة بالإيمان، وأيدٍ طاهرة من دنس الربا؟

فالتاريخ سيذكر جيلنا إمّا بوصفه الجيل الذي أنقذ الحضارة الإنسانية، أو الجيل الذي سلّمها لحتفها المحتوم.

والخيار بين أيدينا، والوقت ينفد، ونداء السماء يتردّد:

ذروا ما بقي من ربا...